الانتقاد

والدروس التاريخية في سورية

كتب حضرة الاب هنري لامنس في الجزء الحادي عشر من السنة العشرين لمجلة المشرق مقالاً مطولاً تحت هذا العنوان رد فيه على ردنا عليه في تاريخه المختصر عن سورية مزج فيه ما آخذناه عليه من الاغلاط والمغالطات في تاريخه متوهماً اننا ارتكبنا مثله في مقالات (غابر الاندلس وحاضرها) . وانا لنشكره لاعترافه ضمناً باكثر ما وقع له من الشطط والاستقراء الناقص في كتابه الاخير عن الشام وأن لم يصرح بذلك .

وقد تشبث باشياء ونقول علينا اموراً اذا كان فيها مايقال في نظره فاللوم يعود على من كتبوها من مؤرخي الافرنج في الاكثر وهم قد استندوا الى نصوص لا تقبل الانكار . وغريب منه كيف يسلب العرب مزاياهم على ما تقتضيه تعصبات الشعوبية وينال من مؤلفي الغرب الذين انصفوا العرب ويزيف اقوالهم ويتهمهم بامانتهم وعلمهم . وليس الثقة في نظره الا من وثّقه . وهذا ضرب غريب من المحاكمة في الحقائق .

فقد قلل بكتابته من شأن الطبري والبلاذري وابن سعد والاصفهاني وابن الاثير وابن خلدون وابي الفدا من ثقات مؤرخينا ووثق الواقدي وما دسه عليه القصاص والوضاعون ! وطعن بسيديلو وميشو وغيرهما ممن كتبوا على الاسلام والمدنية العربية وقال انه لا يركن الى ماقاله العرب الا اذا قورن بكتابات المؤرخين المعاصرين من اللاتين واليونان والارمن وقال في مكان آخر « اليونان والسريان والافرنج » وهذا ايضاً من المغالطة التي نربأ بصاحبنا عن اتيانها .

فان هؤلاء الاعاجم ما كانوا يعرفون عن العرب الا بقدر ما نعرف نحن اليوم عن القطب الشمالي وسكان المريخ فما هذا المرجع البعيد الذي يحيلنا عليه وهو يحتاج على رأيه الى دراسة خاصة وعلم واسع ! من هؤلاء الائمة الذين يقتدى بهم وفي كل صفحة من كلام المتعصبين نقرأ روح الغرض ؟ فكيف نأمنهم على تاريخنا ومتى كان الغريب اعرف بالدار من صاحبها ؟ . واما اذا كان حضرته يريد ان يلقي الشك في

كل ما قاله العرب اللهم الا ما كان له مساس بالقضايا التي يهمه تأييدها على اي صورة كانت فهذا لا يوافقه عليه اقل الناس ذوقاً في تاريخ الامم واحرى بمثل هذا التاريخ الذي يليه ان يسمى كتاباً في بث دعوة دينية او مذهب خاص .

ومن المغالطات ايضاً اصرار الاب لامنس على النيل من صلاح الدين ووصفه له بالطمع بزعمه فان صلاح الدين لم يكن خادماً عند نور الدين بل كان اكبر قواده ، وهو فاتح مصر ومبدد شمل الفاطميين بل وفاتح اكثر الشام والجزيرة وجامع شمل المسلمين لتكون كلمتهم واحدة لعلمه وعلم جميع من لهم مسكة من العقل في عصره انه اذا وسد الملك الى ظفل تمزقت كلمة الجماعة لا محالة على اننا رأينا صلاح الدين قد احسن الى اولاد نور الدين واعطاهم قلعة جعبر التي طلبوها واغضى عن قلعة حلب ولو كتب للملك الصالح ان يعمر لجعله صلاح الدين في دولته كما كان هو في الدولة النورية . والغالب ان حضرة المؤرخ لم ينظر الى هذه الاعتبارات واحب ان يرى الفشل بادياً على الدولة العربية لتتمتع البلاد بعدل الصليبيين كما تمتعت من قبل بعدل الروم والرومان .

اما دعواه ان ابن تيمية كان يحكم بالموت على كل من يخالفه في رأيه وكذلك تلميذه ابن قيم الجوزية فلا يقوم عليها دليل معقول خصوصاً بعد ان عرفنا حرص ابن تيمية على وقاية اهل الذمة كما ذكر ذلك في الرسالة القبرصية . واذا افتى بتأديب الكسروانيين فلانهم خرجوا على السلطان صاحب الوقت وآذوا ابناء وطنهم وعبثوا اذ ذاك بنظام المجتمع السوري ومثلهم بعملهم يقتل في كل شرع وسياسة مهما كانت نحلتهم واسف من بعدهم على ما حل بهم .

وقد آخذنا على قولنا ان المسلمين نحو ٣٠٠ مليون نسمة وادعى ان عددهم لا يتجاوز المائتي مليون وانهم آخذون بالاضمحلال في كثير من الجهات الا في البلاد التي سقطت تحت الحكم الاجنبي ولم يخرج المسلمين في الصين عن السبعة الى الثمانية ملايين مع انهم باجماع الثقات نحو الثلاثين مليوناً وقال ان مسلمي مراكش ثلاثة ملايين مع انهم زهاء سبعة ملايين . على اننا لم نورد هذا الاحصاء على انه حقيقة لاجدال فيها بل قلنا انهم نحو ثلثمائة مليون كما هو الشائع على ان قلة عددهم ايضاً لا تسمح لحضرة المؤلف ان يطعن في مقدساتهم فسواء كانوا مئة او مائتين او ثلثمائة مليون لا تجوز الآداب التاريخية

ان يعبث باصول يقدسونها في كتاب ينشر في ديارهم . واذا كان لا يرضى الاب لانس الا ان يضعف من امر المسلمين ويدعي انقراضهم ويروقه استصفاء ارضهم فنسكت على حواره مرجمين محوقلين .

وقد اتهمنا في نقلنا عن الافرنج عدد سكان الاندلس على عهد العرب وما رويناه عن ثروة الناصر وثبت على زعمه ان الصليبيين لم يقتلوا مئة الف من اهل المعرة واللاجئين اليها . وحجنا بما نقل عن البلاذري في فتوح البلدان من الارقام المحرفة بالطبع بشأن سكان قيسارية على عهد معاوية واتخذ من ذلك دليلاً على ان مؤرخي الاسلام يزيدون الارقام الخرافية الى غير ذلك مما غالط فيه بدون اقامة الحجة الداحضة ، وعجيب والله من مؤرخ ينكر كل ما يرد من غير طريق ابناء مذهبه اومن لم يضرب على وتره ، ولا يغتفر لهم زلة واحدة في جانب الف صواب ويقبل ما يهرف به القائلون بقوله على علاته فضية مسلمة .

هذا ما دار عليه محور المناقشة اما ما بدر منه خلالها من الفاظ التخريبة فاننا نصون قلمنا عن كتابة مثله لمناقشتنا . فقد وسمنا بكولمبس الاندلس كأننا ادعينا اننا نحن اكتشفنا الاندلس في هذا العصر واتهمنا باننا آسفون على كوننا خلقنا في القرن العشرين ولم نخلق في ايام عز الاندلس ونحن لم نورد كلمة تشعر بهذا ولكننا اسفنا على مدنية العرب وندبناها واهلها ونعينا على اعدائهم اعمالهم وهذا مالا يروق في نظر دعاة التعصب الديني الذين يضربون كل علم على سندان النحل والمذاهب . ونسب قلة البضاعة في العلم لمن يستشهد بسيديليو وقال اننا طالعنا نيفاً وثلاثين مؤلفاً (بينهم صديقنا سيديليو) وعدة مؤلفين اسبانيين واخذه الشك في اطلاعنا عليها وادراكنا لمضمونها وقال اننا اخطأنا في تفسيرنا للنصوص الافرنسية .

وعلى ذلك نجيبه اننا لا نستنكف عن مطالعة امثال سيديليو والاستشهاد بالجيد من كلامه وان ادى ذلك الى رميمنا بقلة البضاعة وقد طالعنا زهاء ستين مؤلفاً لا ثلاثين في تاريخ الاندلس ولم نطالع شيئاً بالاسبانية اللهم الا بعض كتابات عربية وشرحها بالاسبانية او ترجمت من الاسبانية للافرنسية فادركنا مضمونها وعساه يبين لنا اوجه الغلط فيها ولا سيما في تفسيرنا للنصوص الافرنسية حتى نشكره على صنيعه علناً . والقول لمجرد لا يقنع القارئ المنصف . لا جرم اننا لم ندع قط ونحن نكتب ونؤلف منذ خمس

وعشرين عاماً اننا نحسن لغة من اللغات ونحن لا نعرف منها الا كلمات خلافاً لمن يعرفون بعض الفاظ من لغة ويدعون الاحاطة بها . والغالب ان حضرة الاب لامنس على طول مقامه في هذه البلاد ودراسته الليل والنهار كتب العرب لم يصل حتى الآن الى فهم اللغة العربية حق الفهم فضلاً عن ان يكتب فيها فمن اجل هذا لم يفهم ما يكتبه الا بواسطة المترجمين ونختم هذه المجالة بتقديم الشكر له على حسن ظنه بنا وثنائه على علمنا في آخر مقاله شارعين اليه سبحانه ان يعلمنا علماً نافعاً نفتح به صفحتنا للحق ولو كان علينا ، ورحم الله من اهدى الي عيوبي .

محمد كرد علي

مطبوعات حديثة

المرأة العربية

في جاهليتها واسلامها

تأليف السيد عبد الله العفيفي الجزء الاول طبع بمطبعة دار احياء الكتب العربية بمصر سنة ١٣٣٩ هـ — ١٩٢١م ص ٢٣٦

اجاد مؤلف هذا الكتاب في وصف المرأة العربية في عهد جاهليتها فذكر نصيبها من الوجود وسمو ادبها ونفاذ لبها وعامة حياتها وفصاحتها وسماحة منطقها الى غير ذلك من جليل المباحث التي تجلت بها حالة المرأة العربية في الجاهلية والصدر الاول للاسلام بعبارات متينة دلت على تمكن المؤلف من ادب العرب واضطلاعه بموضوعه احسن اضطلاع وقد احسن في رد كل نقل لصاحبه وتفسير العويص من الفاظ اللغة سواء كان كلامه او كلام القدماء فجاء كتابه كتاب ادب ومعجم بلاغة يستفيد منه مطالعه اجمل الفوائد من اقرب الطرق وفق الله هذا العالم الى اتمام الاجزاء الباقية على هذا الطراز البديع في الوضع والطبع .

م . ك